قالت العرب

الأولى عيرونى أنه أنا فلاح بدفية، وعيشى حاف / والتانية أزرع
وأقلع اللى نام وارتاح فى دهبية، بمقداف / والتالتة آه اللى أحبه شط
منى وراح فى صبحية، ما قال لى عواف

المشهد
العدد 330 – السنة الثانية عشرة- الأحد 30 يوليو 2023 م- 12 محرّم 1445 هـ

قراءة فى كتاب « سلاطين الغلابة » لصلاح هاشم

الغلبان سُلطانًا .. كيف قاومَ المصريون الكوارث والأخطار والطغاة؟

(١)

لماذا كتب صلاح هاشم «سلاطين الغلابة»؟ هل ليحكى لنا قصصًا من جزيرة عزلاء منسية؟ ولماذا يحكى هذه القصص؟ وبأى قلم كتب؛ قلم الأديب أم قلم عالم الاجتماع أم قلم السيرة الذاتية؟ هذه الأسئلة الافتتاحية هى طرقات أولى على باب «سلاطين الغلابة» لعلها تفتح لنا من عالمه، وسأوازن بين الحقلين اللذين أرى أن هاشم يعمل من خلالهما؛ الأدب لطريقة الصياغة التى اتبعها، وعلم الاجتماع لطبيعة الموضوع.. وأقرر فى البداية: أننا أمام عمل يجمع العلم والأدب معًا، يعلى من قيمة الإمتاع تارة، ومن قيمة الإقناع تارة، وأننا أمام نص فيه طرائق الأديب ومغامراته، مثلما فيه تجارب العالم وموضوعيته.

لدى المطالعة الأولى للعنوان ستشعرُ أنكَ بصدد حديث عن (حُكام) تسلطوا على الفقراء بسبب قهرهم حتى إعجازهم، وسيؤكد هذا الشعور التصدير المأخوذ من القرآن الكريم: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى» (الزخرف: الآية ٥١) لكنك ستراجع نفسَكَ حين تقرأ الإهداء: « إلى البسطاء.. الذين عاشوا معنا على ضفاف النهر .. وعلمونا دروسا فى الحياة، لم نتعلمها فى المدارس .. أهدى إلى أرواحهم الطاهرة بعضًا مما تعلمت..» ، و(المفتتح) ومنه: «لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أناقش كثيرًا من قضايانا المصرية المعاصرة بعقول وحكمة شخوص عاشوا فى مرحلة تاريخية استثنائية فى تاريخ هذا الوطن العزيز .. للتأكيد على أن مشكلاتنا قديمة وتقليدية ولا تحتاج إلى حلول لوغارتيمية لحلها.. بقدر حاجتها إلى بعض من الحكمة والوعى والانتماء» ثم حين تطالع الستة عشر فصلاً، وتتعرف منطلقات الكاتب وآلياتها، وحين تتأمل شخوصه سيتأكد لك أن عليك قراءة العنوان بطريقة مخالفة.. ولن تستطيع ذلك دون أن تقرأ الفصول الستة عشر بدقة، وأن تستمع إلى المقدمة كلما تقدمت فى القراءة.

«سلاطين الغلابة» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى ١٤٤ صفحة ، مقسم إلى مقدمة يؤثر الكاتب أن يختار لها اسم (مفتتح) وستة عشر فصلاً تحمل أغلبها أسماء أبطالها، وحين يخالف هذا فلقيمة فنية منها أن الفصل الأول: «البسطاء وحكايا النهر» الذى أراد أن يكون جسرًا بين الحكايات القادمة وبين المقدمات السابقة.

(٢)

ثمة عتبات ثلاثة ينبغى قراءتها وفق معطيات مختلفة؛ ففى العنوان يمكن النظر إلى التركيب الإضافى باعتبار أن السلاطين غير الغلابة؛ فالعلاقة هنا هى علاقة حاكم لمحكوم كسلاطين المصريين فى العصر المملوكى، كما يمكن أن نقرأه وفق الكتاب ذاته الذى يحدد أن هؤلاء – وهم من الغلابة – اختار الكاتب أن يكونوا سلاطين، وهذا يقودنا إلى تحليل مفهوم – لا معنى – السلطان لدى الكاتب.

هنا تجدر الإشارة إلى تحديد ماهية الكاتب؛ فالكلام هنا – محتوى وشكلاً – هو الرجل، والمؤلف أستاذ أكاديمى فى التنمية والتخطيط، ومستشار وزير التضامن، وهذا يعنى أن له باعًا طويلاً على المستوى الأكاديمى والتطبيقى فى علم الاجتماع (العمران البشرى)، ومن أبحاثه وكتبه: «السوسيودراما والوعى البيئي» و «حيازة السلاح والمجتمع المدنى: بين الواقع المتأزم والدور المأمول» و «الخدمات الاجتماعية الأهلية المقدمة للطفل العامل» و« تقييم المشروعات الاجتماعية» و« السكان وقضايا التنمية» و « الفقر وقضايا التنمية» و« تقييم البرامج والمشروعات الإنسانية» و« دراسات فى مشكلات المجتمع المعاصر» و« الإدارة النظم الخدمية» و«أسياسات الرعاية الاجتماعية» و« التنمية والأزمة» و« تصميم البرامج والمشروعات» و« السلوك الإنسانى وإنتاج الذات» و« الاتصال الإنسانى وفنون التأثير» و« إدارة المؤسسات الاجتماعية» هذا على المستوى الأكاديمى أما ما يتوجه للقارئ العادى فنقرأ: «الفقراء الجدد.. سوسيولوجية القهر والحيلة» و«نبض الخاطر» و «سلاطين الغلابة».

الكتب الثلاثة الأخيرة كتبت بطريقة سعت إلى جوهر الفن – جوهر الفن التلاعب – فعلى حين يبدو الموضوع بسيطا عن شخصية مهمشة، واللغة بسيطة يتخللها مجاز بسيط، والمستهدف هو جمهور القراء – خصوصًا أن معظمها مقالات تنشر فى الصحف – فالقراءة المتمهلة تكشف أن هذه البساطة ظاهريًا، وأن البنية العميقة للنص تحمل من المضامين والأهداف الكثير.

من هنا فقد اخترت (قراءة) هادفًا التعمق وإعادة النظر لأنه كما قال الخليل بن أحمد: «لا يقال قرأت إلا ما نظرت فيه من شعر أو حديث» ولأنه كما أوضحت سيزا قاسم مفهومها: «القراءة خبرة محددة فى إدراك شيء ملموس فى العالم الخارجي، ومحاولة التعرف على مكوناته وفهم هذه المكونات: وظيفتها ومعناها».

فالقراءة تستلزم قدرًا كبيرًا من تدخل الوعي، فهى عملية ذهنية تقوم على ترجمة عنصر مادى إلى عنصر معنوى، وهى عملية واعية، أى أن الإدراك العفوى لمعطى ما لا يمكن أن يعد قراءة، وهى عملية مركبة ومعقدة وذات مراحل ومستويات متعددة؛ الإدراك، فالتعرف، فالفهم، ثم التفسير.

(٣)

سلاطين الغلابة هم شخصيات هامشية فى جزيرة معزولة لا يعرفها أحد، ولولا أن المؤلف لم يتناول هذه النقطة المجهولة لظلت مظلمة، والسؤال هنا: لماذا اختار الكاتب هذه المنطقة وهؤلاء الشخصيات؟

سيحدد الكاتب ذلك، وسيكون لنا أن نؤمن بما قال أو نرفض، وسيكون له أن يقدم دفوعه المقنعة عن فكرته، وستكون دفوعه هى أسبابه ذاتها، فكأنه يضع فرضية ثم يثبتها بستة عشر مثالاً، وفيما نحن منهمكون فى هذا الحجاج العقل – اجتماعي.. سيظهر لنا أن هناك أسرارًا يحملها هؤلاء الستة عشر، وأن هناك رسائل حملها الكاتب لحكاياتهم، وأن هناك رسائل حملوها هم إليه؛ فكأن هاشم هنا: رسول السلاطين.

صلاح هاشم

الجمع بين المتناقضين سمة رئيسة فى هذا الكتاب فلماذا يؤثر الكاتب هذه التقنية منذ العنوان؟ وهل هى مصادفة أم أنها تدبير ذكى يبدو كذلك؟

(٤)

ما الذى يعنيه هذا التركيب الإضافي: سلاطين الغلابة؟ هل هم أشخاص يحكمون الغلابة أم أشخاص من الغلابة صاروا سلاطين؟

تتباعد – حد التضاد – مفردتا العنوان؛ فالسلاطين دال على الملك والسيطرة والحجة القاهرة، «الغلابة» دالّ على الفقراء قليلى الحيلة المنصاعين المغلوبين على أمرهم.. ما يدفع القارئ للسؤال: هل سيتحدث الكاتب عن حكام الفقراء سواء أقهروهم أم وقفوا بجانبهم؟

وفيما لا يخلو معجم عربى من كلمة «سلطان» لا نكاد عثر على كلمة «غلبان» رغم فصاحتها فهى فعلان زنة ملآن، بمعنى مملوء، وكذا غلبان بمعنى مغلوب، واللافت أن كلمة مغلوب ترد مرة واحدة فى القرآن، وتعنى مقهور: ﴿فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر﴾ (القمر:١٠)، أما سلطان فتأتى ٣٧ مرة وكلها تعني: حجة قاهرة، «الكليات معجم فى المصطلحات والفروق اللغوية» (ص٤٩٣): «كل سُلْطان فى القُرْآن فَهُوَ حجَّة، وأصل السلطنة القُوَّة، وَمِنْه السليط لقُوَّة اشْتِعَاله»

حين نذهب إلى معاجم اللغة، نجد «الفروق اللغوية للعسكري» (ص١٨٨): «أن السلطان قُوَّة الْيَد فى القَهْر لِلْجُمْهُور الأَعْظَم وللجماعة الْيَسِيرَة أَيْضا أَلا ترى أَنه يَقال الْخَلِيفَة سُلْطَان الدُّنْيَا وَملك الدُّنْيَا وَتَقول لأمير الْبَلَد سُلْطَان الْبَلَد وَلَا يُقَال لَهُ ملك الْبَلَد؛ لأَن الْملك هُوَ من اتسعت مقدرته على مَا ذكرنَا فالملك هُوَ الْقُدْرَة عَلى أَشْيَاء كَثِيرَة وَالسُّلْطَان الْقُدْرَة سَوَاء كَانَ على أَشْيَاء كثيرَة أَو قَلِيلَة وَلِهَذَا يُقَال لَهُ فى دَاره سُلْطَان وَلَا يُقَال لَهُ فِي دَاره ملك، وَلِهَذَا يُقَال هُوَ مسلط علينَا، وَإِن لم يملكنا وَقيل السُّلْطَان الْمَانع الْمُسَلط على غَيره من أَن يتَصَرَّف عَن مُرَاده، وَلِهَذَا يُقَال لَيْسَ لَك على فلَان سُلْطَان فتمنعه من كَذَا»

ويرى صاحب معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٠٩٤): «سُلطان (مفرد): (١) قوّة ونفوذ وسيطرة «بسط سُلطانه – سلطان مُطلق – ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: القهر والغلبة بالإغواء والكفر» ° سُلطان القانون: هَيبته وقوّته وسيادته. (٢) حجّة، برهان، ودليل «سلطانٌ مبينٌ– ﴿يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ – ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: الحجّة والبرهان»».

أما المفردة الثانية فلا نعثر لها على أثر فى معاجم اللغة، وفى كتب الصرف نجد الوزن «فعلان» ولا نعثر على الكلمة ذاتها رغم شيوع الأصل اللغوى «غلب» ونجد اضطرادًا لاستخدام الصيغة للدلالة على أمرين: صيغة المبالغة (شديد الغلب

ومنها انحدرت الكلمتان للعامية المصرية فصارتا ابنتين لهما معًا، التصقت الأولى بالتاريخ وأدبياته، وكانت فى بعض الأوقات دليلاً على تحول الأمور السياسية؛ فالسلطان حسين كامل لقب أطلق ليعبر عن استقلال جزئى من الخلافة العثمانية بعد إعلان بريطانيا الحماية على مصر وخروجها من تبعية السلطنة العثمانية، وقد غلب «السلطان» تعبيرًا عن الخليفة العثماني، ومن قبله كان علامة على المماليك الذين يحكمون بالنيابة عن الخليفة العباسى (الصوري)

لكن الكاتب وهو أكاديمى فى علم الاجتماع يختار المترادفتين مازجًا بينهما فى براعة لأسباب سنوردها فيما بعد، منتخبًا معنى جديدًا وهو: «الحكيم» فكل شخصياته كما سنرى هم حكام حكماء، أما المضاف إليه فلا يعنى هنا المفارقة، بل إنه يعنى أنه منهم (سلطان من الغلابة)

ستثور عدة أسئلة بعد قراءة الكتاب لأول مرة، وهذه الأسئلة ستجعلك تعيد قراءته ثانية، وفى كل مرة تكرّر: «الإنسان لا ينزل النهر مرتين» كما قال الفيلسوف هيراقليطس؛ ففى كل مرة يتغير فيك شيء، ومنها:

لماذا اختار الكاتب هذه النماذج؟

أين السلطنة فى هؤلاء؟

لماذا أفرد الكاتب مفتتحه للحديث عن النيل وعلاقته بالمصريين؟

وسنحتاج إلى قراءة الكاتب على مهل لاكتشاف أجوبة هذه الأسئلة، والأهم بروز أسئلة فى كل حين؛ لأن العمل الجيد هو الذى يفتح آفاق التلقي، ويجعل متلقيه ينفتح على العالم أكثر.

(٥)

فى المفتتح سنلحظ فكرة مركزية: أثر النيل فى البلاد والعباد، أفراحًا وأتراحًا، خصبًا وجدبًا، أمنهم وخوفهم، ونجد تعبير الكاتب: «أفراح المصريين وتعاستهم مرتبطة بالنهر.. فنجد الفلاح فى الصعيد قد ربط على مَر التاريخ حياته بزيادة النهر ونقصانه.. وظهر ذلك جليًا فى الأغانى التى يرددها الفلاح وهو ينظر إلى النيل .. ويُجَسد فيها معاناته اليومية مع النهر ويرصد فيها «مخاوفه».. فنجده يقول بلغة عامية بسيطة: «صاحى من الصبح بدرى .. والنيل بيسابق خُطايا.. يفيض يغَرّق جزاير .. يهبط أموت فى حشايا».

استشهاد الكاتب هنا بقول الفلاح البسيط، يزيح الستار عن كثير من الأجوبة؛ لكننا سنقف أمام النزعة الانتقائية لدى هاشم؛ فهو يختار ما يثبت العلاقة الملتبسة التى لا تكاد تستقر، فالفيضان مرتبط بالفرق والموت الكامل، والغيضان مرتبط بالخوف من المجاعة، وأن يكون ذلك فى الأغانى فهذا يقودنا إلى نظرة المصرى للأغنية؛ فهى ليست تعبيرًا عن الفرح فقط، بل قد تعبر عن الحزن (كالعدودة) وهنا هى معبرة عن الحيرة.

(٦)

فى نموذجه الأول، سيفاجئنا الكاتب بعنونته: «البسطاء وحكايا النهر» ومصدر المفاجأة هنا أنه رغم حديثه عن «محمد السقا» فإنه لا يعنونها باسمه، بل يختار أن يجعل عنوانه جسرًا بين بقية القصص والمفتتح، وينتقل فى سلاسة من قصة لأخرى، وفى كل قصة سنجد أننا أمام حالة تبدو من بعيد فريدة فى نوعها، كما تبدو هذه الجزيرة النائية، لكن بمرور القارئ على قصص النص سيكتشف أن هذه هى نماذج مصرية، صنعت لنفسها سلطنة خاصة.

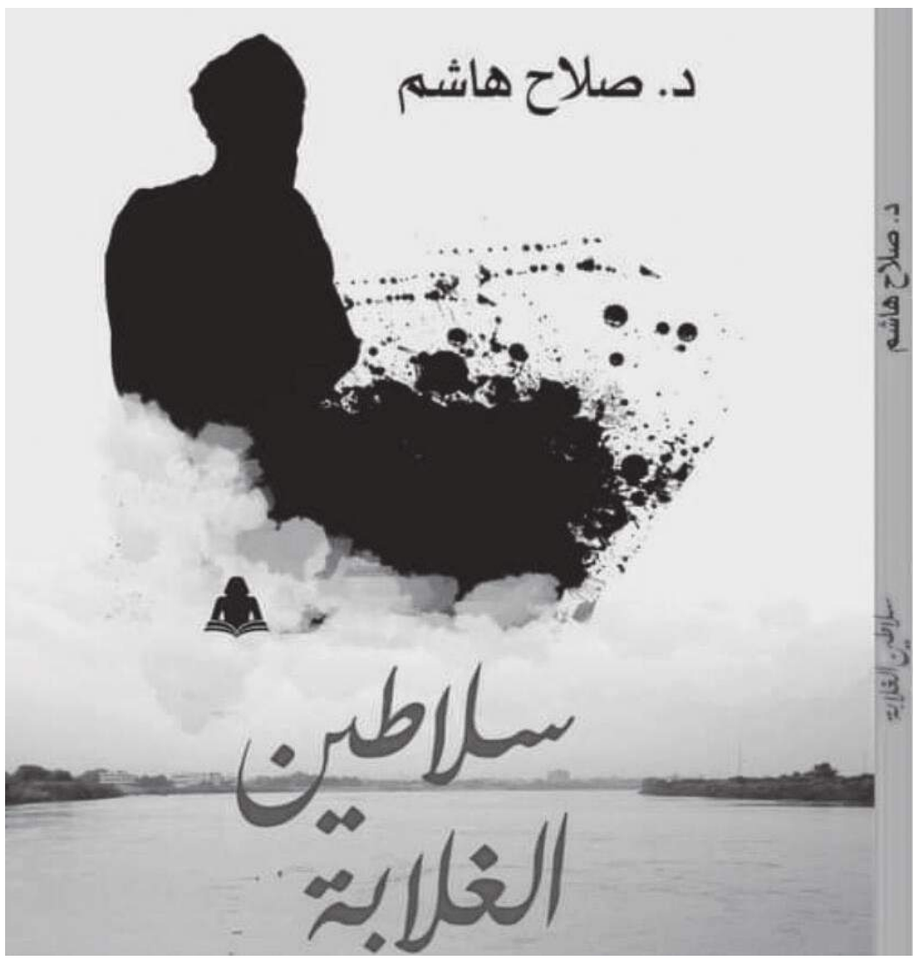

أغلب الظن أن الكاتب تأثر بمفهوم السلطان فى العصر المملوكي، وذلك لأن النظام وقتها كان يضع خليفة «سكة» أى اسمه يوضع على النقود، أما المهيمن فهو السلطان المملوكي، فهو الذين يعين الولاة، ويحمى الثغور، ويذب عن النساء.

هنا هناك «خليفة، ملك» خفي، لنقل إنه: النيل، النظام الحاكم، القهر، وهناك سلطان ينزع عن هذا الخليفة سطوته؛ فيعظم الخير ويحجم الشر.

القصص الموجودة فى: البسطاء وحكايا النهر (عم محمد السقا)، وعم غتاتة، وبائعة الدود، وعفاريت عم السيد، كتاتيب سرية، وسلطان الغلابة، وكاتم أسرار الموتى، ورفاعة وعقارب الخماسين، وأوجاع سالمان، ودرب الوجع، وبشارة .. المختلف عليه، عشة العمة محضية، وعم حسين النص، ومقام الحاج بلاش، وساقية شبيه، وعرض الفرقانة – ليست قصص شخصيات تأثر بها الكاتب، وأراد أن ينقلها نقلاً أمينًا للأجيال التالية، بل هى أشبه من جهة بالحكايات الشعبية، ومن جهة أخرى النص القصصي، لكنها أقرب إلى العينات الدالة على صفات مجتمعنا المرتبط بالنهر.

حين نقرأ هذه النماذج فى ضوء سؤال: هل أراد الكاتب أن يتحدث عن بشر (غلابة) استطاعوا أن يصيروا سلاطين؟ وفيم كانوا هكذا؟

لنسر على طريقة الكاتب فنختار؛ دراسة حالة، وستكون حالتنا واحدة من النماذج النسائية، لأن القهر يكون عليها مضاعفًا وبالتبعية فإنه كى يختارها الكاتب فمقاومتها مضاعفة ولافتة فى مجتمع يرى إخفاء المرأة سترًا، ويراها هى عورة؛ لذلك سنعمل على «كتاتيب سرية».

هى امرأة تختار ألا تتعلق بالنظام الحكومى فهى ترى أن تعليمه «يُزغط الطلاب» وترى أن الفقراء أبناء البطة السوداء؛ لذلك لا تشارك فى الانتخابات؛ فهى لأبناء البطة البيضاء.

يبدأ الكاتب بمقدمة تجمع بين رأيه الشخصى ورؤيته، وبين الحديث عن شخصيته المختارة، وبين الهم العام: «دائمًا كنت آراها نموذجًا مختلفًا للمرأة التى لعبت دور الأم والأب معًا. ربما رآها أهل القرية أنها «هَبْلَة» فكيف تترهبَن فى «كهف» أبنائها، وهى فى ريعان الشباب.. وكانت حين تُسأل عن سر رَهبانيتها تقول «مات أحدُنا.. وكان لزامًا على الآخر أن يُكمل الطريق..!»

نحن هنا أمام امرأة مصرية مات عَنها زوجها؛ فتفرغت لأبنائها ورعايتها، على عكس ما تفعل الأرامل فى القرى، ليس هذا فحسب بل إنها اختارت المخالفة فى الملبس والمأكل والطيور المقتناة: «سريّة» هو اسمها الذى عرفناها به.. كانت تلبس دائمًا ثوبًا أبيضَ.. بعَكس كل نساء القرية اللاتى كن يرتدين الثياب السود حتى فى لحظات الفرح.. وكانت «سريّة» لا تشترى من الطيور سوى ذوات اللون الأسود.. وإذا رزقتْ بطتها ببطة بيضاء؛ تحرص دومًا على بيعها» إن اختيار الكاتب هنا لكلمة (تحرص) يدل على الوعى والعناية والتصميم.

ترى ما الذى دفع سرية لهذا؟ إنه إحساسه بخواء النظام المهيمن: «لم تكن «سريّة» يومًا من طلاب التعليم النظامي.. وكانت إذاعة القرآن الكريمَ هَى المدرسة التى تخرجت فيها «سريّة». وحين كنا نسألها ماذا تعلمت من الإذاعة يا خالة؟ فتقول: لا شَيء.. سوى كيف أُفكِر ..!» هذا الموقف يعلق عليه الكاتب: «وربما فى إجابتها تلك «نَبْش» فى سر أزمة تخلف «التعليم» فى بلادنا.. الذى صار مكانًا لحشو العقول بمعلومات أغلبها لا يفيد»

إن مواقف سرية التى وصلتها للسلطنة توصلنا إلى قدرة الغلابة على التعايش، إنهم يزهدون فيما يغلو، ويعتزلون ما يؤذيهم، إنهم يصلون بحكم ثقافة الجماعة الشعبية إلى مبادئ محددة قليل منهم من يتمسك بها، وهؤلاء هم السلاطين.. سلاطين الغلابة.

هكذا تظهر قضية سرية: «وحين كنا نُلِحُ عليها بالمشاركة فى الانتخابات تقول: لكل منا قضيته التى تشغله.. اذهبوا أنتم فدافعوا عن قضاياكم كما تعلّمتم فى مدارسكم.. ودعونى أدافع عن حق البط الأسود فى البقاء كما علمتنى الحياة..!« لذلك فقد صار بيتها محلاً مختارًا وتحول بيتها إلى كتاتيب لا كتاب؛ فهى تعلم الحياة بالممارسة، وتربى الأمل: «قلّما كنا نشاهدها تضحك.. وحين تبتسم تفيض عيونها بالدموع.. كانت امرأة «أميّة» لكنها كانت مُثقفة.. كنا نترك كُتّاب الشيخ شحاته» التى كان يُحَفظنا فيها «القرآن» بالعصا دون تفسير.. ونذهب لخالتى سريّة لنتعلم منها الحياة من خبرتها فى تربية البط ..! كنا نلوم الدّنيا بأن جعلتنا أبناءً للفقراء.. لكن سريّة كانت دائمًا تزرع فينا الأمل وتخبرنا بأن الغد ليس ملكًا للبطَ الأبيض.. فعادة ما يبدأ الناس فى الذبح بما يُعجِبُون! وأن الفقراء لا يملكون رفاهية التعلم بالتجربة والخطأ.. ففى خطأ الفقير موتُه ..!»

ويصل الكاتبَ إلى نتيجته من خلال استعراض قصة سرية (النموذج) وتأثيرها على محيطها: «لذا فعادة تراهن الأمم الناهضة فى تحقيق مستقبل أفضل لأبنائها على قدرة الفقراء فى الخروج من «براثن الفقر الموجِعة» أكثر من رهانها على قدرة الأغنياء فى تطوير «أوضاعهم المرفَهة»! فقلت لها فى ذهول: إذن على من تراهنين فى المستقبل يا خالة؟ فقالت: بالطبع على أبناء البطة السوداء ..!

(٧)

إن قراءة هذا الكتاب المهم من خلال هذه الزاوية، سيضعنا أمام إعادة ترسيم لعلاقتنا بأولئك الغلابة الذين يحملون (سلطانهم) درعًا وسيفًا.. سواء كان هذا السلطان حلم محمد السقا فى « البسطاء وحكايا النهر» أو الحب والتشبث بالموروث فى «عم غتاتة»، أو التحايل على لقمة العيش فى «بائعة الدود» أو التمسك بالأرض فى«عفاريت عم السيد»، أو الاختلاف فى «كتاتيب سرية»، أو الصمت وحفظ المجالس والاعتزاز بالنفس فى «سلطان الغلابة»، أو حفظ الأسرار والعمل المستمر فى «كاتم أسرار الموتى»، أو السعى للإنقاذ دون أجر فى «رفاعة وعقارب الخماسين» ، أو الصبر والطاعة والبر فى «أوجاع سالمان»، أو تربية الأمل فى «درب الوجع» ، أو التسامح والتعاون والاندماج فى «بشارة .. المختلف عليه»، أو التضحية فى «عشة العمة محضية»، أو الإخلاص للحلم وانتظاره فى: «عم حسين النُص، أو حب البشر والأرض والنيل فى «مقام الحاج بلاش»، أو السعى لامتلاك أسباب القوة فى «ساقية شبيب، أو حفظ العرض فى «عرض الغرفانة».

بكلمة: لقد وضع صلاح هاشم سمات الشعب المصرى التى جعلته يقاوم ويستمر ويكمل طريقه، وضعها فى آحاد الناس، أولئك الذين لا يمكن إلا أن تعبرهم العين الباصرة غير مدركة لأهميتهم وقدرتهم، لكنهم كما قال أحد الغربيين المحتكين بهم: «إن هذا الفلاح الذى تهينه، تسكن فيه حضارة سبعة آلاف سنة».. هذا الفلاح وإخوته حين يتمسكون بأصولهم يكونون.. سلاطين الغلابة.

أحمد سراج

د. حسام عقل: الثقافة المصرية تتنفس إكلينيكياً والمسرح مات منذ 15 عاماً

مصر طاردة للعلماء ... والبحث العلمى يحتضر ولا سقف يحمى اللغة العربية من الانهيار

أكد الدكتور حسام عقل أستاذ النقد والأدب العربى بجامعة عين شمس ورئيس ملتقى السرد العربى، أن الوضع الثقافى فى الفترة الحالية يبدو مختنقاً إلى حد كبير، لم يعد هناك اكتشاف للمواهب الشبابية الجديدة وتبنى للإبداعات، كما لا يتوافر الدعم المادى والمعنوى للأدباء والشعراء والمفكرين، وأصبحت الصالونات الأدبية متنفسا بديلاً.

وقال عقل إن المنظمات المدنية لها دور رئيسى فى تطوير الثقافة والأدب والفنون المختلفة، ولابد من تنشيط دورالمجامع وإعادة النظر فى مناهج تدريس اللغة العربية لأنها مناهج عقيمة وهناك ضمور فى القواعد الأساسية للغة العربية لدى معظم الشباب وليس هناك سقف قانونى يحمى اللغة العربية ويعاقب من يخطيء، كما أن المسرح المصرى مات منذ ١٥ عاما وهناك محاولات لإحيائه، ودخل الخطاب السينمائي منطقة صعبة وسيطرت عليه تيمات العنف والجريمة.

وإلى نص الحوار..

● فى البداية.. ماذا تعنى الصالونات الأدبية، وأهم ما قدمته للشعراء والأدباء؟

– لولا ظاهرة الصالونات الأدبية لسقطت الثقافة المصرية سقوطاً مدوياً، لأنها أصبحت تتنفس اكلينيكياً عبر الصالونات التى قدمت الكثيروأوجدت حراكاً مستمرا، فزادت أعداد المشاركين فى الندوات إلى ٢٠٠ شخص وأكثر وهذا لم يحدث أبداً فى ندوات وزارة الثقافة، كما يمكن من خلالها إقامة مسابقات أدبية وتشجيع أصحاب المواهب ومساعدتهم فى نشر أعمالهم واكتشاف المواهب الجديدة، فهناك شعراء وروائيون ومسرحيون عرفناهم من خلال ظاهرة الصالونات وكذلك اكتشاف حركة نقدية جديدة، والتواصل مع العالم العربى حيث بدأت الصالونات المصرية تتواصل عربياً، كل هذه الأمور قامت فيها بدور كبير رغم شحوب نشاط المجتمع المدنى فى مصر نتيجة ظروف كثيرة وأهمها الظروف السياسية، وازدهار الصالونات ليس غريبا، تزدهر حين يضعف دور المؤسسة الرسمية، فهى متجذرة وقديمة فى الثقافة العربية منذ أيام الأندلس، واستمرت الظاهرة إلى القرن الماضى مثل صالون مى زيادة الذى استمر ٢٠ عاما ينتج رموزا وأسماء جديدة فى الإبداع الفنى والحركة الأدبية، وفى كل الأحوال عندما نسترد ازدهار الصالونات الأدبية، نحن نسترد مجداً كان لنا.

● ما أهمية التوعية الثقافية والنصوص الأدبية والفنون فى بناء المجتمع؟

– القصيدة الجيدة والنص الأدبى الصحيح يساعد فى تغيير نسق الوعى وتطوير المجتمع نحو الأفضل، وزيادة تعريف الناس بكيفية الدفاع عن حريتهم وكرامتهم، حيث يصبح أسلوب التخاطب أكثر رقيا، كما يسهم فى رفع الروح المعنوية خاصة فى لحظات الإنتكاسات والهزائم، وللفنون والآداب دور كبير فى التنشيط والتجدد المجتمعى والحضارى، والثقافة مهمة جداً لأن وعى الشعب يحتاج إلى تغيير حيث توجد سمتان سلبيتان فى الشعب المصرى، هما الأمية الثقافية وقلة الوعى ويصبح الفرد ضحية لحملات إعلامية تسخ هذا الوعى، ونلاحظ أن الشعب لايهتم بالقراءة، فتقرير التنمية البشرية عام ٢٠١١، الصادر عن "مؤسسة الفكر العربى" يشير إلى أن العربى يقرأ بمعدل ٦ دقائق سنويًا، بينما يقرأ الأوروبى بمعدل ٢٠٠ ساعة سنويًا، حتى مع وجود فضاء النت، كل هذه مشكلات موجودة ولم تصنع مؤسسة الثقافة شيئاً للتلافى تلك المشكلات ولم تقدم نموذجا ميدانيا ملموسا، بل على العكس تشوهت السينما المصرية التى خضعت لقرصنة السبكي، فأصبحت الثقافة مشوهة وقابلة للإختراق، وبالتالى مهمة المثقفين والنخبة والطليعة أن تستعيض عن هذه السلبيات بثقافة جديدة ووعى جديد وهناك أزمات اقتصادية طاحنة وبطالة ومشاكل اجتماعية تؤثر بلا شك على الثقافة.

● ماتقييمك للأداء السينمائى والدراما التليفزيونية فى الفترة الأخيرة؟

الخطاب السينيمائى كله دخل إلى منطقة صعبة، حيث سيطرت عليه تيمات العنف والجريمة أو الغريزة، ولن نستطيع تخليص السينما من قبضة السبكى فى الفترة الحالية، لأن هذا يحتاج جهد سنوات طويلة وهناك بعض المحاولات ولكن ماذا تفعل أمام اكتساح رؤوس الأموال، كما أن الدراما التليفزيونية تعانى معاناة كبيرة بعد رحيل أسامة أنور عكاشة ومن الواضح أن تجربة السبكى فى السينما انتقلت إلى الدراما، ومعنى ذلك أن المشكلة تستفحل، ولذلك أصدرنا بياناً فى ملتقى السرد العربى بدين الدراما التليفزيونية ويحذر من مغبة وخطورة الطريق التى تسير فيه لأن مشكلاتها مركبة فهى تغزو كل أسرة ، كما أننا كنا قديماً ننتج ٢٠٠ فيلم فى العام ثم تقلصت إلى ثلاثة أو أربعة أفلام وهذه كارثة ومع أنها تمثل حالة من حالات الحضور لكن ليس بصورة كافية.

● ماذا عن المسرح المصري واستخدام الألفاظ والإيحاءات الغريبة على المجتمع ودور أجهزة الرقابة؟

– المسرح المصرى مات منذ ١٥ عاماً، وهناك محاولات لإحيائه الآن ومسرح مصر بداية لإستعادة القطاع الطلابى بتقديم أعمال نظيفة نسبياً لكنها ضعيفة فنياً، ولكن أين مسرح الدولة الذى كان يقدم عليه (إيزيس) والأعمال الكبرى لتوفيق الحكيم، وبالتالى أرى أن المسرح شأنه شأن السينما يحتاج سنوات طويلة للتعافى، والمسرح الآن يعرض أعمالاً متفرقة وضعيفة ولاتؤسس لعمل مسرحي، وأساس الرقابة هو الرقابة الذاتية لدى الناس والثقافة التوعوية التى تخلق نوعاً من الرقابة والحصانة الذاتية للإنسان، أنا من أنصار تكريس الرقابة الذاتية لكن رقابة الدولة لابد أن تكون موجودة بالذات مع الأعمال الهابطة.

● كيف ترى الدعوات المتكررة لتجديد الخطاب الدينى؟

– نسق التجديد لابد أن يكون حالة مستمرة ولكن هناك أسئلة مطروحة.. كيف يجدد ومن الذى يقوم بالتجديد ويملك عدة الإجتهاد، أؤيد فكرة تجديد الخطاب الدينى وخاصة فى ظل وجود قضايا جديدة لم تكن مطروحة على الساحة، ولكن أحياناً يستخدم هذا المصطلح ولا يراد به التجديد ولكن يقصد به إلغاء الخطاب الدينى أو تمرير النموذج اللا دينى، ولكن ما الهدف من استخدام المصطلح الآن وحدود التجديد وما الثوابت التى يعتمد عليها، واحتياج المرحلة يلعب دوراً هاماً فى ذلك.

● ما أسباب انهيار اللغة العربية، وما تعليقك على انتشار العامية فى الشعر وبعض مصطلحات الشباب؟

– اللغة العربية تمر بوضع خطير وعادة عندما نطرح فكرة الخطورة يقال لنا أن الله يصون هذه اللغة ويحفظها، وقال فى كتابه العزيز (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لكن هذا لايعفينا من مسؤوليات ضعف الأداء اللغوى، وأن اللغة العربية باتت مهددة فى ظل ضعف المؤسسات التعليمية والتربوية وزحف اللغة الدارجة والعاميات وهناك محاولات عربياً لإحياء لغات نادرة مثل (النوبية) فكل هذه العاميات تمثل تهديداً خطيراً للفصحى، هناك ضمور فى القواعد الأساسية للغة العربية لدى معظم الشباب وهناك عدم إلتزام من مؤسسات الدولة باستخدام الفصحى بالصورة التى تعتمد على محور السلامة اللغوية، وجهود المجامع ضعيفة وليس هناك سقف قانونى يحمى اللغة العربية ويعاقب من يخطئ، فمثلاً فى فرنسا عام ١٩٩٥ صدر قرار يعاقب كل من يخترق اللغة الفرنسية عن عمد بعقوبات مغلظة تصل إلى حد السجن والغرامة، توجد حالة هزيمة لغوية داخل الوطن لذا لابد من تنشيط دور المجامع وإعادة النظر فى مناهج تدريس اللغة العربية لأنها مناهج عقيمة ولاتقيم لساناً عربياً سوياً.

● ماذا عن مستقبل البحث العلمى وأهم مشكلاته؟

– بوجه عام للأسف مصر والعالم العربى تعتبر أماكن طاردة للعلماء وهناك شواهد كثيرة تدل على هذا، فالعالم لايجد دعما والبحث العلمى مخصصاته من ميزانية الدولة ضعيفة جداً مقارنة بنفس النسبة فى دول أخرى، فهناك ضعف حقيقى فى تمويل مؤسسات البحث العلمى والعلماء يعانون بلا شك، حيث أن أكثرهم يرحل ويتألق فى الخارج لأن الدولة لا تدعم العلم كما أن الأنظمة والحكومات العربية لاتوقر العلماء ولا تعطيهم حقوقهم

● هل هناك أساليب جديدة لتطوير المناهج اللغوية مستقبلاً والإرتقاء بالمنظومة التعليمية؟

– هناك أساليب مقترحة لكنها مازالت حبيسة الأدراج ولاتفعل ميدانياً، فالتربويون يقترحون ومعاهد التربية تقترح، والمنظومة التعليمية بحاجة إلى تطوير جذرى وهيكلى، لأن معظم المناهج عاجزة وغير مواكبة للعصر وغير حامية لقيم المجتمع المصرى وغير قادرة على استعادة قيم الوسطية والإعتدال، وهناك دورات فردية بجهود ذاتية داخل مصر وخارجها لتطوير اللغة العربية لكننا نريدها جهودا مؤسسية ومستمرة ومنتظمة.

حوار: حنان موسى